الاكتساب اللغوي بين القدماء والمحدثين

عمر فاسي

أستاذ مساعد "أ" بجامعة طاهري محمد بشار.

الملخص:

اختلف الألسنيون في كيفية اكتساب اللغة لدى الإنسان وهذا على قدر مشاربهم ومناهلهم ، إلا أن الأوائل من العرب كانت لهم رؤى من قبل هذا، إذ نجدهم يؤكدون على الممارسة والاعتياد وعامل البيئة والمحيط ، والقوى الفطرية، ويرى المحدثون أن الاكتساب يعتمد على القدرة العقلية الفطرية لدى الإنسان ،وبعضهم يعالجه من حيث البيئة وفئة تراه أنه ذلك التفاعل بين قوى الطفل الذاتية وبين بنية المحيط.فرغم اختلاف هذه الاتجاهات إلا أن نظرياتهم سواء قدماء العرب أو المحدثين من الغرب تعتمد كلها على عامل أساس ألا وهو عامل البيئة والمحيط.

الكلمات المفتاحية: الألسنيون – قدماء – محدثون – الاكتساب اللغوي – وجهة نظر – البيئة .

Résumé

Les mots clés : Les linguistes- anciens – nouveaux – acquisition de la langue – point de vue – environnement.

Les anciens savants arabes et nouveaux linguistes occidentaux ont étudié le phénomène de la langue et son acquisition dans toutes ses dimensions , quant aux savants arabes, ils voient que l'acquisition de la langue se réalise selon la pratique , la répétition et la capacité humaine innée et en plus l'entourage , alors que les nouveaux linguistes ont un autre point de vue, et insistent sur l'interaction entre la capacité de l'enfant et la structure de son environnement ou sa capacité mentale .Malgré cette différence, on trouve que ces deux pôles partagent un facteur principal et majeur qui est l'entourage et l'environnement.

Abstract

Either the ancient Arab scientists or new occidental ones, had studied the language and its acquisition through different dimensions, the ancient Arabs see that the acquisition happens according to practice and repetition, innate human capacity and the environment, while the new linguists had another

point of view by insisting on the interaction between the child capacity and his environment structure .Despite this different views, they all focus on the environment factor.

Key words: Linguists – Ancient – New – Language acquisition – Point of view – Environment.

مقدمة:

إن اللغة كظاهرة اجتماعية هي تلك الخيوط الرابطة بين الأفراد لتعايشهم مدى السنين في أزمنة وأمكنة مختلفة، فإن كانت الإشارات ودقات الطبول علامات لغوية تنبئ بالمعلومة والتعبير عن الغرض عند الإنسان البدائي،فقد عوضتها الوحدة اللغوية أو المفردة المكونة من فونيمات تختلف من لسان إلى آخر.قد اختلف الأوائل عن أصل اللغة هذه الظاهرة التي شغلت الكثير من الباحثين والعلماء وبخاصة الألسنيين قديما وحديثا ،فئة تراها وحيا غيبيا وفئة تراها تواضع واصطلاح بين أقوام للتعبير عما يرغبون فيه.لا نغوص في أغوار هذه الإشكالية فنحن نبدأ من حيث كيفية اكتساب الإنسان لها بعد وجوده في مجتمع يتكلم لغة تخصه، فالمصدر الأول لاكتساب اللغة هو الأم ، فحين يولد الطفل فهو ينمو في صدر أمه ومنه يتغذى وعلى أصواتها(الأم) وسلوكاتها ينشأ،فكيف يكتسب الطفل لغة أمه؟

اكتساب لغة الأم:

إن أسماء الأشياء، والحركات والصفات تحصل بربط الاسم مع الشيء فما يوضع فوق الرأس مثلا هو "قبعة" ووثبات الأرجل السريعة هي العدو، ولون ما فهو أحمر،فليس هناك كلمة أخرى عند الطفل يفكر فيها تحمل نفس الدلالة،فكلمة"قبعة" ليست مترجمة وحتى الطفل ثنائي اللغة لا يترجم وإنما يكتسب اسما آخر للشيء فكلمة "قبعة: ليست مرادفا لكلمة « cap » فالشيء سواء هو « cap » أو قبعة بالنسبة للغة التي يتكلمها فهي بالسمع لا بالمشاهدة،فالطفل يربط الأشياء بالأصوات لا بصورة أو كلمة مكتوبة في ذهنه،فالصورة إذاً لدى المكتسِب سمعية.

رغم أن المفردات تكتسب متفرقة كل واحدة على حدة لأول وهلة، فالطفل يسمعها متفرقة ويتعلم استعمالها مع كلمات أخرى في مجموعات بصورة فائقة،' خذ قبعتك الخضراء ،انزع القبعة، ضع القبعة.....

إن اختلاف البيئة والمحيط يسبب اختلاف المفردات، وتآلف الكلمات تلقائي ،فالطفل في العالم القروي يعرف كلمات لا يعرفها الطفل في الحضر أو المدينة أو المدينة الساحلية والعكس، وعدد كبير من الأسماء يُدرك بعلاقته ببعض الأفعال،فالطفل ينظر إلى الشيء ،يلمسه،يأكله،يلعب به فهو أحيانا يقترف الكثير من الأخطاء لكنه يقوم بتصحيحها وتقويمها مع الزمن بمساعدة من حوله من الأفراد فإذا تعلم كلامه بالأخطاء فالسبب فيما سمعه أو في تقليده الأعمى للأخطاء.[i]

عندما يبدأ الطفل في تعلم الكلام ،فهو يأخذ من عدد كبير من المعلمين،فكل فرد يتواصل معه، وكل شيء يراه من حوله يدخل في عملية الاكتساب اللغوي،فليس هناك حدود للزمن فالطفل يدرس كل الوقت،وكلما هو في حالة وعي هو يتعلم ويكتسب،ليس لمجرد ساعات في الأسبوع، وليس هناك عطلة تنسيه ما تعلمه، فالاكتساب عملية متواصلة ،والمراجعة مستمرة لما سمعه وتعلمه،فنفس الأصوات ترتبط بالأشياء،ونفس مجموعة الأصوات التي يسمع ليست عشرات المرات وإنما مئات وآلاف المرات، فلتوالي هذه العملية هو لا يبذل جهدا فكريا لاستدعاء المفردات ولا في الربط بين الأشياء والأفكار لأنها تصبح عملية أوتوماتيكية الإدراك ، وعملية الاكتساب ليست مملة لأنها متنوعة ومختلفة المحتوى.[ii]

I – الاكتساب اللغوي عند العرب القدامى

اكتفى الإنسان البدائي بالصمت لمدة من الزمن ليعيش منفردا، وعند اتساع دائرة الأسرة تواضع أفرادها على استعمال أصوات معينة في ظروف وأماكن معينة وعليها اصطلحوا وتيسر التواصل بينهم.وعندما تكاثرت الأسرة تكونت الجماعات فتكونت الأسرة الكبيرة كما يرى أهل علم الاجتماع ،ثم فكر الإنسان في مخرج آخر يسهل به الاتصال بين عدد هائل من بني البشر بعد أن لاحظ أن الأصوات قد يجرفها تيار الانقراض ثم تواضع على رموز وأشكال وأصوات تخضع لقوانين معينة،فما لغات العالم إلا عبارة عن أصوات وضعت لها رموز لتثبيتها من جهة ولضمان استمراريتها من جهة أخرى،ولعل هذه العلة الأخيرة هي الأهم.

وكانت استمرارية اللغة – هذه الظاهرة الإنسانية – من جيل إلى جيل بالاكتساب،فمنذ ولادة الإنسان وهو يكتسب سلوكات عديدة تنمو مع نموه البيولوجي ومن بينها اللغة. فالاكتساب اللغوي هو **تعلم ونمو لغة الفرد،فتعلم لغة الأم أو اللغة الأولى يدعى بالاكتساب اللغوي الأول ،وكلمة اكتساب هي مستحسنة في الغالب على كلمة تعلم، وهذا المصطلح الأخير مقرون بالنظرية السلوكية للتعلم،والاكتساب اللغوي يهتم به الألسنيون،وعلماء النفس،الألسنيون التطبيقيون،حتى يتسنى لهم فهم إجراءات تعلم اللغة،وإعطاء أحسن فهم وإدراك لطبيعة اللغة.**[iii]

إن ظاهرة الاكتساب اللغوي شدت اهتمام الفلاسفة قديما والمناطقة وعلماء النفس والتربية خاصة وعلماء الكلام، فالفلاسفة واللغويون العرب حتى وإن لم يعطوها قسطا كبيرا من العناية، فلم يختلفوا كثيرا في تحليلهم لهذه الظاهرة كما وقع للمحدثين(البيئة أم القدرات الفطرية)،بل أقر المفكر العربي بوجوب تلاقح هذين العاملين حتى يحصل اكتساب اللغة، ويظهر التباين بين علماء العرب إلا في مدى تركيز الأهمية في أحد العاملين أكثر من الأخر، ويتمثل هذان العاملان في عامل الممارسة والاعتياد، وعامل القوى الفطرية.

1– عامل الممارسة الاعتياد:

يرى القاضي عبد الجبار أن " **الكلام من الأفعال المحكمة كالبناء والنساجة والصياغة**" وفي ذلك يقول:" **واعلم أنه لا يمتنع أن يعلم بالاختبار مقاصد المخاطبين باضطرار،ولولا الاختبار المتقدم لم يعلم ذلك حتى يختلف الحال في هذه المعرفة بحسب طريقة الاختبار وما يمكن فيه وما لا يمكن،لأن العربي يعرف مقاصد العربي بالاختبار.....ويكون هذا العلم مما يحصل باضطرار عن طريق العادة،لأنه مباين للعلوم الحاصلة ببديهية العقل الذي لا يجوِّز اختلاف العقلاء فيه من حيث كان هذا العلم يفتقر إلى الاختبار الذي قد تفترق أحوالهم فيه**".[iv]

فالاكتساب في رأي القاضي عبد الجبار يتم من خلال السماع والاختبار والمحاكاة والمران والممارسة المباشرة والاعتياد،وعلى قدر التكرار ترسخ العادة وإذا رسخت العادة تتوطد على نحو يصبح من الصعب التعديل فيها ويقول في هذا الصدد:" **حتى أن بعضهم إذا اعتاد طريقة في الفصاحة المتقدمة لا يواتيه الكلام المتوسط، والركيك إلا بعد جهد وتكلف.**"

ويؤكد كذلك على أن الكلام علم ضروري والتكلم صناعة قائمة على العلم والإرادة وتوفر الآلة واستقامة الترتيب،فيحصل الكلام في نظره باضطرار،أي أن الكلام علم اضطراري بموجب الاستعداد الطبيعي فيقول:" **لأن الكلام يحتاج إلى العلم بتصريف الآلة التي هي اللسان وغيرها على بعض الوجوه،كما يحتاج إلى آلة مخصوصة، فإذا لم يعلم الطفل ذلك أو لم تكتمل آلته لم يمكنه إيجاده،وصار ذلك بمنزلة من لا يعلم الأفعال المحكمة في تعذره عليه،ولذلك متى علم ذلك ومرن عليه فعل الكلام.**"، فالطفل إذا لديه سلفا آلة تكلم قائمة في ذاته،وهي آلة مخصوصة ذات طبيعة مختصة،وتكتمل هذه الآلة في ذاته فيصبح بإمكانه فعل الكلام بعد أن يمرن آلته من خلال التكرار والمطاولة في الاختبار.[v]

نستخلص مما أشير إليه أخيرا أن الطفل يولد مزودا بجهاز قوامه إصدار الكلام وآلة اكتساب السلوكات وبخاصة اللغة،فهو استعداد طبيعي لديه،وبمجرد حركة هذا الجهاز وتوظيفه تحت اضطرار يؤسس للفرد وجوده ويلبي طلباته يبدأ الاكتساب اللغوي والسلوكات الأخرى.

2 – عامل القوى الفطرية:

ركز الفارابي في القدرة الفطرية عند الإنسان فقال:" **الناس مفطورون على صور وخلق في أبدانهم محدودة،وتكون أبدانهم على كيفية وأمزجة محدودة،وتكون أنفسهم معدة ومسدة نحو معارف وتصورات وتخيلات بمقادير محدودة في الكمية والكيفية.**" ويتم الاكتساب من خلال قدرة فطرية يدعوها الفارابي بـ**الملكة الطبيعية.**[vi]وهذه الملكة تتحول بواسطة تكرار الأفعال إلى ملكة اعتيادية إما خلقية وإما صناعية.

ونرى من خلال هذا أن تفسير الفارابي لعملية الاكتساب لا يبتعد كثيرا في خطوطه العريضة عن تفسير الاكتساب في نظرية تشومسكي الألسنية،إلا أن الفارابي في المقابل يصر على اعتبار عملية الاكتساب هي تحصيل مباشر عبر تجربة لغوية إذ يقول:" **يأخذ الناشئ هذه الأشياء عن السلف،على الأحوال التي يسمعها من السلف وينشأ عليها ويتعوَّدها مع من نشأه، إلى أن تتمكن فيه تمكنا يحفو به أن يكون ناطقا لغيره.**"

وهكذا يرى الفارابي أن الاكتساب يتم من خلال أخذ الناشئ الكلام من المحيط الذي ينشأ ويترعرع فيه ،وذلك عبر تكون العادات الكلامية ،وإلى نظير ذلك يذهب "**ابن سينا**" فيما يختص بالملكة،فيشير إلى أن ما يرسِّخ ملكة الصناعة في نفس الإنسان هو الاستعداد الجِبِلِّي والممارسة والاستعمال للجزئيات.

إن ثنائية البيئة والقدرات الفطرية كانت المحور الذي تدور حوله عملية الاكتساب اللغوي عند العرب،فلم يكن لكل فئة منهم أن تشد بزمام أمر من الأمرين،وإنما كما سلف في الذكر أن بعضهم أعطى قسطا من الحظ للعامل الأول والبعض آثر العامل الثاني رغم أن كِلا الأمرين يتضافران لإنشاء عملية الاكتساب.[vii]

3 – الاكتساب اللغوي عند ابن خلدون:

إن اللغة كظاهرة اجتماعية،قد تناولها **ابن خلدون** في مقدمته فيرى أنها ملكة مكتسبة فيقول:"**اعلم أن اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم في مقصوده وتلك العبارة فعل لساني فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم.**"[viii]

إن اللغة الإنسانية في نظر ابن خلدون ملكة مكتسبة واعتبار اللغة ملكة faculté فهو يربطها بالمقدرات الفطرية لدى الإنسان على نحو يجعل البعد اللغوي خاصية إنسانية فيقول :" **ومن كان على الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعداد لحصولها ،فإذا تلونت النفس بالملكة الأخرى خرجت على الفطرة،وضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل في هذه الملكة ،فكان قبولها للملكة الأخرى أضعف .**"

ويضيف قائلا:" **إن الملكة إذا سبقتها ملكة أخرى في المحل فلا تحصل إلا ناقصة مخدوشة.**"

فبعد ذكره أن الملكة اللسانية ترسخ في مكانها في الذهن الإنساني فهو يؤكد أنها حقيقة نفسية ويقول :" **ثم أن هذه النفس الإنسانية غائبة عن العيان وآثارها ظاهرة في البدن،فكأنه وجميع أجزائه، مجتمعة ومتفرقة،آلات للنفس ولقواها،أما الفاعلية فالبطش باليد ،والمشي بالرجل،والكلام باللسان،والحركة الكلية بالبدن متدافعا.**"

وعلى هذا النمط من التحليل والاستدلال يتطرق ابن خلدون إلى ظاهرة الاكتساب اللغوي بحس لغوي دقيق، وأول ما يتطرق إليه في هذا المضمار أن الاكتساب يتم عن طريق المنشأ الطبيعي وبشكل مندرج فيقول:" **فالمتكلم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام جيله،وأساليبه في مخاطبتهم،وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ،فيلقنها أولا،ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة وفي كل متكلم واستعماله يتكرر،إلى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحدهم،هكذا تصيرت الألسن واللغات من جيل إلى جيل ،وتعلمها العجم والأطفال ،وهكذا هو معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعرب بالطبع أي الملكة الأولى التي أُخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم."**[ix]

فيمر اكتساب اللغة عند ابن خلدون بمراحل عديدة،فالملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال وتصبح صفة للذات ثم تتكرر وتصير حالا،والحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار وتصبح ملكة،وتلك هي الصفة الراسخة ويركز ابن خلدون في الممارسة والتكرار خلال عملية الاكتساب ويقول:" **وإنما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتياد والتكرار لكلام العرب.**" فإن ملكة الاكتساب بقدر التكرار والحفظ واستعمال والمران تزداد رسوخا ،إلا أن عملية الاكتساب تبقى عند ابن خلدون أمرا وجدانيا فيقول:" **وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم ومثاله: لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربى في جيلهم ،فإنه يتعلم لغتهم ويحكم شأن الإعراب والبلاغة فيها حتى يستولي على غايتها."**[x]

يسقط هذا الأمر مستدلا بسبويه والفارسي والزمخشري وأمثالهم من فرسان الكلام الذين كانوا أعجاما ويقول:" ....**فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم إنما كانوا أعجاما في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من العرب."**[xi]

يتجلى من هذا أن الطفل يكتسب لغته من البيئة التي ينشأ فيها،فهي لا ترتبط بالعرق أو النسب أو اللون وإنما المحيط الذي ينشأ فيه فهو يتلقى أصواتا فيلقنها وبعامل المران يحصل الاكتساب،فاكتساب اللغة ميزة إنسانية ولا يغفل ابن خلدون عن السماع فالسمع عنده أبو الملكة اللسانية.

لقد أدرك ابن خلدون العلاقة القائمة بين اكتساب اللغة وتعلمها، وأدرك ضرورة الاستفادة من المعرفة بقضايا الاكتساب وتوظيفها في مجال تعليم اللغة.لذلك فإن أفضل ما يمكن إحاطة متعلم اللغة العربية المعاصر لابن خلدون به هو النتاج العربي الفصيح وأفضل طريقة تربوية عنده هي الطلب من المتعلم التعامل مع هذا النتاج بالذات حفظا للممارسة قائلا:" **ووجه التعليم لمن يبغي هذه الملكة ويروم تحصيلها،أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجاري على أساليبهم في القرآن والحديث وكلام السلف،ومخاطبات فحول العرب في أسجاعهم**

وأشعارهم،وكلمات المولدين أيضا في سائر فنونهم ، حتى يتنزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم."

ركز ابن خلدون في التكرار والممارسة من موقع إقراره بأهمية هذين العاملين في استحكام الملكة اللسانية ورسوخها.[xii]

حين اهتم ابن خلدون بمسألة الاكتساب اللغوي ،كان من أولئك الذين ركزوا في البيئة والممارسة والاعتياد،ولم يهمل جانب الاستعداد الفطري للإنسان في اكتساب اللغة،ونستدل من هذا أن العرب قديما لم يختلفوا في هذه المسألة اختلافا جذريا وإنما في بعض الجزئيات فشأنهم لم يكن كمن اختلفوا قبلهم في مسألة الوحي والاصطلاح بالنسبة للغة. ويفرق ابن خلدون بين اكتساب ملكة اللسان والملكات الأخرى إذ يوضح الدكتور **محمد عيد** في كتابه "**الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون**" متكئا على قول ابن خلدون إذ يقول:

"والسبب في ذلك أن صناعة العربية إنما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة،وهو علم بكيفية لا نفس كيفية نفس الملكة وإنما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علما ولا يحكمها عملا،مثل أن يقول بصير بالخياطة غير محكم لملكتها في التعبير عن بعض أنواعها :الخياطة هي أن يدخل الخيط في خرت الإبرة ثم يغرزها في لفقي الثوب مجتمعين، ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا،ثم يردها إلى حيث ابتدأت ويخرجها قدام منفذها الأول .بمطرح ما بين الثقبين الأولين ،ثم يتمادى على ذلك إلى آخر العمل ويعطي صورة الحبك والتثبيت والتفتيح وسائر أنواع الخياطة وأعمالها.وهو لو طولب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا....."[xiii]

II – الاكتساب اللغوي عند المحدثين

تعددت وجهات النظر في مسألة أتمام عملية الاكتساب، وبالإمكان تصنيف هذه النظريات في ثلاث فئات رئيسة:

1 – النظريات البيئية:

البيئة هي المسؤولة عن تحقيق عملية الاكتساب، وهذا ما يراه علماء النفس السلوكيون، وبخاصة **واطسن*** و **سكينر*** ، فاللغة في نظر السلوكيين شكل من أشكال السلوك ، لذا فهم لا يقرون بوجود أي تباين بين مسار اكتساب اللغة ومسار اكتساب أي مهارة أخرى. والسلوك اللغوي كأي سلوك آخر ، هو في النهاية حصيلة عملية تدعيم إجرائي . ومن ثم ينبغي أن تتركز الدراسة العلمية على الملاحظة المباشرة،أن تعتمد على خبرة الحواس فحسب.

ولا يرى السلوكيون أي فائدة للمفاهيم العقلية مثل القصد والوعي والتفهم.فالأهل هم مصدر المعطيات اللغوية التي يحاكيها الطفل،وعملية التعزيز التي يقوم بها الأهل هي بالذات ، العملية اللازمة لتوفير العادات الكلامية ويتحدد نمو الطفل طبقا للظروف الموضوعية في محيط يراقب هذا النمو ويؤثر فيه.[xiv]

2 – النظريات العقلانية:

تفترض هذه النظريات وجود قدرة عقلية فطرية تقود عملية الاكتساب ويتزعمها كل من **تشومسكي** و **لينبرغ*** يرى تشومسكي أن للطفل بالفطرة تنظيما ثقافيا يسميه بالحالة الأساسية فمن خلال التفاعل مع البيئة وعبر مسار النمو الذاتي للبيئة ،يمر العقل بتتابع حالات تتمثل في البنى المعرفية. وفيما يتعلق باللغة تحصل تغيرات نسبة إلى الحالة الأساسية للعقل خلال المرحلة الأولى من الطفولة وبعدها تكتمل حالة عقلية صلبة وثابتة تتعرض فيما بعد لتغيرات طفيفة.

ويشير تشومسكي إلى هذه الحالة الصلبة على أنها حالة نهائية للعقل تتمثل فيها معرفة اللغة (أي الكفاءة اللغوية) بطريقة معينة عند الإنسان،باعتبار أنها حالة ثابتة يتوصل إليها الطفل خلال نموه البيولوجي وتنجم عن تطور عصبي عبر التعرض للمعطيات اللغوية.وفي هذا المسار تكون خصائص المبادئ الفطرية وليس التجربة اللغوية هي التي تحدد الحالة الصلبة التي تتمثل فيها القواعد. من هنا يتوقع تشومسكي وجود علاقة وثيقة بين الملكة الذهنية الفطرية وبين التنظيم اللغوي، وذلك من واقع أن القواعد إنما تكتسب من باب عمل المبادئ الفطرية في كلام المحيط.لا بل وهو يستغرب وجود قيود أو ضوابط معرفية يضعها الطفل على التنظيم اللغوي خلال نموه اللغوي. وهذه الضوابط تتوافق بنظره مع القواعد الكلية التي بإمكان القول بالتالي أنها أقرب ما تكون إلى الحالة الأساسية،ففي ظل المبادئ الفطرية تعمل المعطيات اللغوية المتوافرة في محيط الطفل كقادح لشرارة الاكتساب،فتحرك أواليته من دون أن يكون بمقدورها أن تؤثر في جهاز الاكتساب. فبإمكان المحيط اللغوي إذاً أن يطلق أو يلجم أواليات الاكتساب إلا أنه ليس بمقدوره أن يقولبها من خلال بناه الخاصة إليها، فيقتصر عمل المحيط على إطلاق برامج مقررة سلفا، وذلك لأن بنية جهاز الاكتساب تأتي بالذات من الداخل، وتتطور بالضبط وفقا لبرنامج خاص بالجنس الإنساني.[xv]

3 – النظريات المعرفية:

على رأس هذه النظريات نظرية **"بياجيه" Piaget*** البنائية القائمة على التفاعل بين قوى الطفل الذاتية وبين بنية المحيط، فالسلوك الكلامي الذي تتم ملاحظته خلال الاكتساب هو في رأي "بياجيه" سلوك في حالة تكون دائم، وينشأ بين الطفل وبيئته على نحو يساهم فيه الطفل بصورة فعالة في مسار النمو.وترتسم العوامل الوراثية في هذا النمو الذي لا يتم بالصدفة، ولا تظهر على هيئة بنى جاهزة ومعطاة من الأساس.

يؤكد "بياجيه"أن التعلم الحقيقي هو الذي يحصل عن التأمل أو التروي، فالتعزيز لا يأتي من البيئة كمكافأة بل ينبع التعزيز بالذات من أفكار المتعلم ذاته، فالأشياء التي يتعلمها الطفل وهو في طور نموه، لا يمكن تفسيرها عن طريق المحددات المادية والاجتماعية والنضوجية فحسب،بل بالإمكان ردها إلى عامل أساسي يقود عملية التعلم ويسميه "بياجيه" عامل الموازنة، ولا تحصل الموازنة مما يراه الإنسان، وإنما تساعده على فهم ما يراه.ومن خلال الموازنة يستطيع الإنسان أن يكوّن فهما أكثر دقة للعالم من حوله، ومن هذا المنطلق يقوم الفرد ببناء المعرفة من خلال تفاعله مع البيئة.[xvi]

نستدل مما سبق أن مسألة الاكتساب في نظر العرب الأوائل قد حصروها في عاملين اثنين، القدرات الفطرية والبيئة، فلم تكن هذه الرؤية بعيدة كل البعد عما جاء به المحدثون أو علماء الغرب،فحين آثر القاضي عبد الجبار عامل الممارسة والاعتياد على عامل الفطرة فهذا لا يعني أنه أنكر الثاني ، وإن كان الفارابي ركز في عامل الفطرة فإنه لم ينكر العامل الآخر.

وكذلك ابن خلدون حين ذكر أن الملكة اللسانية ترسخ بالمران والحفظ والممارسة فلم يكن مقصيا لعامل الفطرة. ففي ذكر ما سبق نجد أن دائرة التقاطع بين العرب والمحدثين من الغرب هي دائرة البيئة أو المحيط ، إذ ينادي بهذا العامل كل من سكينر وواطسن وكذلك تشومسكي ولينبرغ فهم لم يخرجوا من هذه الدائرة وفي الأخير بياجيه رائد النظرية المعرفية فهو كذلك لم يلغي عامل البيئة والمحيط.

إن ثبوت اللغة كظاهرة اجتماعية تنبع من خصائص المجتمع ، وكان لابن خلدون العالم الاجتماعي الذي اقتفى أثره أهل الشرق والغرب الأثر الكبير في إثارة هذه المسألة وبالتالي نجد حتى المحدثين يتزعمون نظريات تصب كلها في عامل البيئة والمجتمع الذي ينشأ فيه المتعلم أو المكتسب ، فعامل البيئة عامل رئيس في اكتساب اللغة فإن تفرعت الجزئيات في هذه المسألة فأصلها ثابت وواحد.

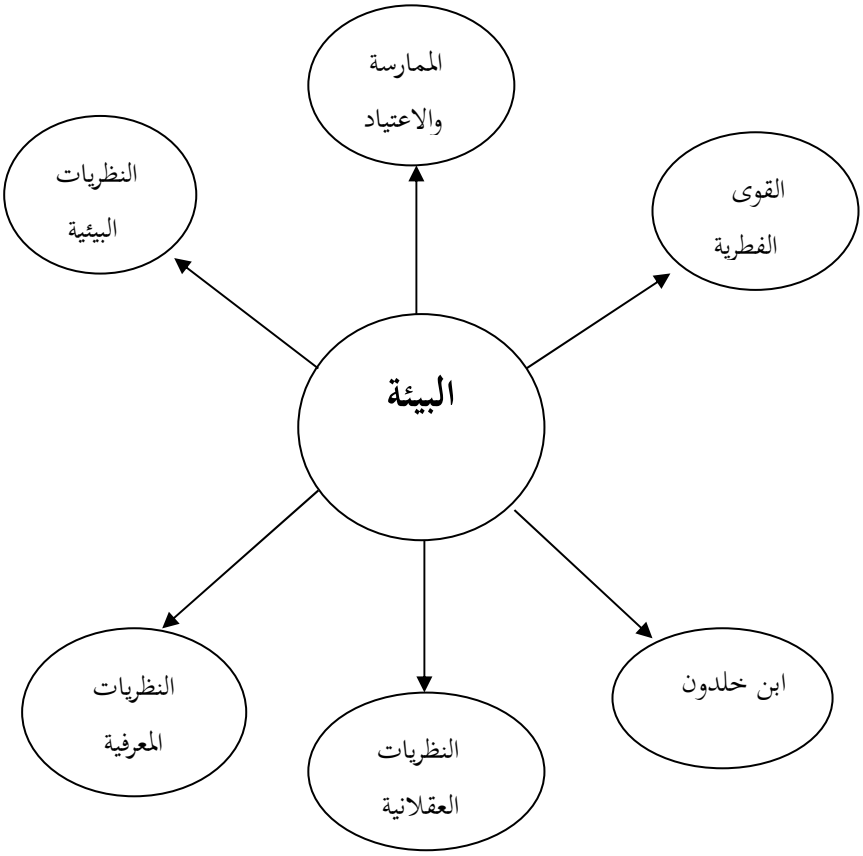

خاتمة:

على إثر ما عالجته في اكتساب اللغة،وكيف تناوله القدماء العرب والمحدثين من الغرب، يتجلى تقاطع هؤلاء في الرؤى من حيث كيفية الاكتساب إذ تدور آليات هذا الإجراء حول عنصر أساس ألا وهو البيئة والمحيط الذي يعيش فيه الإنسان،فنجد البيئة والمحيط هما ذلك الفضاء الذي يدير عملية التواصل وتلك الأرضية التي تساعد الفرد على التعلم ،وهما الخيط الرابط بين النظريات.فلم تكن هناك جماعة تصر على إقصاء عامل البيئة والمحيط في عملية اكتساب اللغة.

الإحالات:

[1]- Done Byrne,English teaching extacts.(London:longman group LTD 1979) pp.9-10 ال بتصرف.

[2]- Done byrne.Ibid.pp.11.بتصرف

[3]- Jack c.Richard.John Platt and Heid Platt. Dictionary of language teaching and applied linguistics.(Longman group.U.K.Limited.1997.)p.197 . بتصرف

4- القاضي عبد الجبار .المغنى في أبواب التوكيد والعدل.الجزء 16 إعجاز القرآن.أمين الخولي.(القاهرة.1965.) ص.37.

5 - المرجع السابق.ص.275.

6- ميشال زكريا.قضايا ألسنية تطبيقية.(ط1.دار العلم للملايين.بيروت 1993).ص.107.

7 - المرجع السابق.ص.108.

8- ابن خلدون.المقدمة.(مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية) ص.410.

9- المصدر السابق.ص. 416

10- المصدر نفسه.ص.422.

11- المصدر نفسه.ص.422.

12- ميشال زكريا.المرجع نفسه.ص.111.

13- Behaviourism. محمد عيد.الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون.(عالم الكتب،1979،القاهرة) ص.35،نقلا عن مقدمة ابن خلدون .ج4،ص:1276

*واطسن(جون برادوس، 1958): عالم نفساني أمريكي من رواد المدرسة السلوكية

* سكينر: عالم نفساني أمريكي من مواليد 1904 بولاية بنسلفانيا له مؤلفات في عملية الاكتساب والتعليم المبرمج.

14- محمد عيد المرجع نفسه.ص:104.

* لينبرغ: عالم بيولوجي وألسني أمريكي ، واضع كتاب"الأسس البيولوجية للغة " الذي يعتبر الكتاب الأساسي فيما يسمى حاليا بالألسنية البيولوجية.

15- المرجع السابق .ص:104-105.

16- محمد عيد المر جع نفسه .ص: [xvi]105

القائمة الببليوغرافية

1 – القاضي عبد الجبار.المغني في أبواب التوكيد والعدل.ج16.

2 – ميشال زكريا.قضايا ألسنية تطبيقية.

3 – عبد الرحمن بن خلدون المقدمة.(بيروت:مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد لنشر القرآن الكريم والكتب الإسلامية.)

4 – محمد عيد.الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون.(القاهرة:عالم الكتب 1979)

5-jack c.Richard. john Platt and Heid Platt (Dictionary of teaching and applied linguistics.longman group.U.K .Limited.1997.)

6 - Done Byrne,English teaching extacts.(London:longman group LTD 1979) pp.9-10